

المعجّ والإنسان : المنزلة والعلاقة بالزّمان والمكان

د. سيف الدين ماجدي
المعهد العالي لأصول الدين
جامعة الزيتونة، تونس.

1- الحجّ ومنزلة الإنسان :

تقرّر عند علماء وفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم أن الآية الدّالة على وجوب الحج هي التي ذكرها الله في سورة آل عمران عندما قال جلّ شأنه ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽¹⁾، فهذه الآية هي التي صرّحت بخطاب التكليف المتعلق بفرضية الحج والملاحظ أن الخطاب في آيتنا هذه موجه إلى النّاس ومضمون مصطلح النّاس مكتنز بالإيحاء الدلالي.

(1) آل عمران، 197، لا خلاف بين العلماء في أن هذه الآية هي الدّالة على الوجوب، انظر، ابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دارقهرمان، استانبول، (دت)، كتاب الحج، ص257، وانظر الإمام الغزالي (أبو حامد) : أسرار الحج، تحقيق موسى محمد علي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت لبنان، (دت)، باب فضيلة الحج هامش المحقق ص 20.

ومن أوضح واقرب دلالاته تأكيد البعد الإنساني للحج فالحج وإن كان حقا لله ﴿لله على الناس﴾ فإنه يبقى مرتها باستطاعة الإنسان بحيث ترفع عن الإنسان فيه أصناف الشدة والخرج ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ إن الحج فعالية إيمانية للإنسان هي وبالإنسان تكون. كما أن مصطلح الناس فيه انحياز إلى جمهور البشر بحيث يتضمن النداء في الآية دعوة هامة إلى بني آدم لكي يحققوا مناسك هذا الركن وهي دعوة ترفض كل الوصايات والمعاذير والإيدلوجيات إنها دعوة لا يبقى فيها سوى أن يخاطب رب العالمين جماهير الناس ولذلك يمكننا أن نستنتج من خلال سياق التنزيل أن مصطلح الناس يقترب من المعنى المعبر عنه بالفرنسية - les masses - والظاهر من خلال القرآن الكريم أن هذه الحيثية تعلقت بآيات الحج أيما تعلق فكلما ذكر القرآن الحج مجملا وكلما فصل في تبيان المناسك كلما وجدنا أنفسنا أمام خطاب يستعمل مصطلح - الناس - ودلينا على ذلك ما يلي :

- لما أشار القرآن إلى بدايات التاريخ الديني لمكة ونوّه بالبيت الذي يؤمه الحجاج ذكر أن هذا البيت إنما وضع للناس. جاء في سورة آل عمران قوله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾ (2) وقد زادت آية المائدة هذا المعنى تأكيدا لما قالت ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾ (3).

(2) آل عمران، 96.

(3) المائدة، 97.

- ولما استوطن سيدنا إبراهيم عليه السلام بمكة (4) أمره الوحي بأن يعلن في الكون فرض الحج للناس كافة فعلا صوت إبراهيم عليه السلام بذلك الأذان الرّمز، واتقا بوعده ربه أن يبلغ صدى صوته إلى البشرية جمعاء. ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (5) وفعلا كان لهذا النداء الإبراهيمي صدهاء الذي لم يخفت إلى يومنا هذا. فعلى امتداد تاريخ البشرية كان الحج حاضرا في طقوس الأديان. ولا زال هذا النداء هو العامل الرئيسي لأعظم تجمع تعرفه الأرض كل سنة.

- لما ذكر الله العرب بقيمة الحرم المكي ولما نبههم إلى منة تتعلق بهذا الحرم وهي منة الأمن قال ﴿أولم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ (6) فمن دخل الحرم من الناس أمن ومن كان خارجه فلن يأمن من الغوائل ومن ضمنها الاختطاف.

- ولما بدأ القرآن يمهّد لفرض الحج على المسلمين لم يغفل كلمة - الناس - حيث قال ﴿وإذ جعلنا مثابة للناس﴾ (7).

ولما أعلن القرآن عن التخلي عن الشرك والتخلي بالتوحيد بقيت كلمة الناس تابعة لنسق السياق، سياق ذكر الحج قال تعالى ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ (8).

(4) يعود نسب إبراهيم عليه السلام إلى سام بن نوح، ولد إبراهيم في أور الكلدانيين (سنة 1996 ق م) ست وتسعين وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح، انتقل به والده إلى أرض كنعان أرض الفينيقيين وبالتحديد حاران (هي حوران)...ثم دخل مصر ومنها انتقل إلى مكة، توفي سنة (1773 ق م) ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح : انظر ابن عاشور الطاهر: التحرير، والتنوير م 1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص 702.

(5) الحج، 27.

(6) العنكبوت، 67.

(7) البقرة، 125.

(8) التوبة، 3.

ولمّا صرح القرآن بمناسك الحج كما تقررت في الرسالة الخاتمة قال عند نهاية الآيات ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ (9).

و لما سأل الناس عن الغاية من انتقال القمر عبر منازل أجاب القرآن إجابة بقيت محافظة على ما هو سمته مع الحج فقال ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (10).

واللآفت للانتباه في ملحظنا هذا أن سورة الحج التي نزلت قبل فرضه على المسلمين (11) والتي نوهت بما في مناسك الحج من منافع والتي ألمعت إلى ما في الحج من معنوية هي السورة التي افتتحت بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وتكررت فيها كلمة الناس أربع عشرة مرة ولسائل أن يسأل لماذا تعلّق خطاب الحج بصيغة العموم ذلك أن ذكر مصطلح - الناس - قد اطرّد، ولم ينشأ خطاب التخصيص في هذه الشعيرة كأن يقول الوحي مثلاً - والله على المؤمنين - أو - والله على المسلمين - لماذا هذا التأكيد على مصطلح الناس ؟ وما هي دلالات هذا التأكيد ؟ إجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقف عند الدلالات التالية :

أ - دلالة الأخلاق

إذا عدنا بمصطلح - الناس - إلى أصل الاشتقاق، فإننا سنلمح ما يستبطنه المصطلح من دلالة أخلاقية « فالنّاس جمع انسيّ بكسر الهمزة وياء النسب فهو عوض عن أناسيّ، الذي هو الجمع القياسي للإنس وقد عوضوا عن أناسيّ أناس بضم الهمزة وطرح ياء النسب... ثم حذفوا همزته تخفيفاً وقد التزم بحذف أناس عند دخول - ال - عليه... (لتصبح النّاس) ومفردها انسيّ أو انس

(9) البقرة، 199.

(10) البقرة، 189.

(11) تم فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

أو إنسان⁽¹²⁾ وكله مشتق من انس ضد التوحش لأن الإنسان يألف ويأنس»⁽¹³⁾ والدعوة إلى الحج تبدأ من هذا المقام أي من حيث يكون الإنسان مؤهلاً لنبذ التوحش فهو يستطيع أن يألف غيره ويأنس به فهو الأنيس والمؤانس وهو الذي يرغب بطبعه في الإيناس وينفر من الايحاش⁽¹⁴⁾ وكل هذا يشير إلى أن طبع الإيناس هو الأصل الذي يقوم عليه التعارف، والأساس الذي تقوم عليه ظاهرة الاجتماع وحيثية الأعمار ولذلك يمكن أن نقول إنّ الإنسان مؤهل لثلاث يظهر منه فساد - أخلاقي - يمس ذاته أو ذات غيره من بني جنسه أو يمس كائنات من كائنات الطبيعة أو مرفقا من مرافق المحيط وبناء على ما تبين من هذه الدلالة نستنتج أن فلسفة الحج إنما تنتظر للإنسان باعتباره كائنا أخلاقيا حتى أن « الذي يسبق إلى الذهن من استعمال هذا اللفظ (إنسان) ليس معنى امتلاك الكائن البشري للقوة العقلية وإنما معنى امتلاك الكائن البشري للقوة الخلقية بحيث يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من صالح الأخلاق »⁽¹⁵⁾ ذلك أن الفعل العقلي - التعقل - يعود إلى صميم الأخلاق ومنه تسمية العقل بالنهْي لأنه ينهى عن القبيح من الفعل⁽¹⁶⁾ « وقد قيل إنّ العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى كما يمنع العقل الدابة من مرتعها ومرعاها⁽¹⁷⁾. إن التعقل موصول بالخلق مرتهن به وإن الفعل العقلي قيمة خلقية أو لا يكون انه القيمة التي يرتقي

(12) يقال للمرأة أيضا إنسان ولا يقال إنسانة : الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس ص35.

(13) ابن عاشور، محمد الطاهر : م ن، ص 262، وانظر أيضا، الرازي، محمد بن أبي بكر : م ن، ص35.

(14) قارن، الرازي م ن، ن ص.

(15) عبد الرحمان طه: الحق العربي والاختلاف الفلسفي ، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006 ص 147. وانظر الرازي م ن، ن ص.

(16) الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر: م ن، ص56.

(17) الترمذي، (الحكيم) : بيان الفرق بين الصدر والقلب والفوائد واللب، مطبعة الحلبي القاهرة، 1958، ص76.

بها الكائن البشري إلى مقام الإنسان⁽¹⁸⁾ « فالإنسان لا يكون عاقلاً إلا بقدر ما يكون فاضلاً ولا يكون فاضلاً إلا بقدر ما يحسن التعامل مع بني جنسه ومع كائنات الوجود ولهذا الاعتبار وباعتماد ما ذكرناه في تحليل أصل الاشتقاق وبحسب ما وقع استقراءه من آيات الحج نرى أن ميزة الإنسان الأخلاقية هي التي يعول عليها ركن الحج إذ هي الأقدر « من غيرها على صنع هوية الكائن البشري »⁽¹⁹⁾ أينما كان زماناً ومكاناً. وهذا هو الملحظ النفيس الذي قررته أية الأذان بالحج مع سيدنا إبراهيم عليه السلام.

« وأذن في الناس بالحج يأتوك... »⁽²⁰⁾. إن المجيء إلى مكة والتوجه بالكلية إلى إتمام المناسك هو توجه مبني على فاعلية قيمة الخلق في الإنسان لأنه لا يمكن أن تفقه مقاصد الحج ولا يمكن أن تؤدّى حيثيات مناسكه وسط ذلك الجمع البشري الهائل وبذلك الوتيرة المفعمة بالحدث والنشاط من دون التسلح بفاعلية الأخلاق.

ب - دلالة المسؤولية :

تقوم العبادة في الإسلام على تفعيل استطاعة الإنسان لينهض بالتكليف هو بنفسه ولا يلقي بمهمة الانجاز على غيره ذلك أن فقه العبادة يقوم على مقصد يتمثل في تأصيل المسؤولية ونبذ التواكل عملاً بمنطوق « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »⁽²¹⁾ ونلاحظ أن ركن الحج يكتف من الاهتمام بهذا المقصد/ المسؤولية عبر مستويين المستوى الأول الحضور الذاتي والمستوى الثاني تنشيط عمل الروح. يتمثل أولهما في الحضور الذاتي حيث يوجب فرض

(18) قارن عبد الرحمان طه، م ن، ص 174.

(19) عبد الرحمان طه : م ن، ص 157.

(20) الحج، 27.

(21) النجم، 39.

الحج ان يقوم الإنسان بكل الأركان (22) وان يؤدي جميع الواجبات (23) فإذا حصل ذلك يكون الحاج قد أتم مناسكه. والحقيقة أن هذه المناسك تتطلب الحضور الذاتي حساً ومعنى. ونعني بذلك أن يكون الإنسان قادراً بدنياً على الفعل مع كونه واعياً بما يفعل بحيث يستحضر على الأقل المقاصد الظاهرة المتعلقة بفعله. ويتجلى الحضور الذاتي في البعدين العملي والذهني ونقصد بالحضور الذهني أن فرض الحج يستدعي استنفار عمل العقل بحيث يتواصل نقطتين الوعي إلى أن كل سهو خفيف أو نسيان غليظ يفوت واجبا إنما يترتب عليه هذي أو فدية تقدر بقدرها وفق ما جاء في الكتاب والسنة. إنها مراقبة ذهنية موصولة تستوجب تفعيل الانتباه والحذر من كل ارتخاء ذهني أو كسل عملي.

ويمثل المستوى الثاني في تنشيط عمل الروح :

تدعونا مناسك الحج بعد تفعيل الاقتدارين البدني والذهني إلى تفعيل السيطرة على ردود الفعل الغريزية والمباشرة حتى وإن كانت هذه الردود مقبولة في حياتنا العادية. والمقصد من مراقبة ردود الأفعال أن تتمكن المسؤولية من الذات بحيث يتسع الباطن وتهدأ نوازع التسرع ويتشرب الإنسان معنى أن يتأني عند كل فعل أو حركة بحيث يصدر في سلوكاته عن مراقبة - تتم عن كونه يملك زمام نفسه وهو ما يخصب الحكمة في الإنسان ويشعره انه حر ومسؤول. إذ من أجل الحكمة أن تهذب الغرائز وأن ينتبه الإنسان إلى ردود الأفعال وقد أطرت فلسفة الحج هذا التوجه فرتبت على ردة الفعل المتسريعة

(22) الأركان هي، الإحرام، طواف الإفاضة، السعي بين الصفا والمروة، الوقوف بعرفة هذا هو المجمع عليه عند المالكية.

(23) الواجبات أفعال تجب القيام بها في الحج ومن تركها فعليه هدي انظر في ذلك ابن الحاجب : جامع الأمهات، ط 2، تحقيق أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضرري، دار اليمامة، دمشق، بيروت، 2000 م، 1421 هـ، ص 186.

«عقوبة تربوية» فدية⁽²⁴⁾ وثمنت كل حج يخلو من هذه الردود واعتبرته حجا ناجحا. ولذلك ينشط هذا التأطير عمل الروح حيث يتفطن الحاج إلى أن سلوكاته الظاهرة ونواياه الباطنة تخضع للمراقبة من قبل الله. فالإنسان الحاج يتعبد هذه الأيام وفق ما يقتضيه مقام أن تعبد الله كأنك تراه وهو مقام القرب، إن هذا الدرس الحسي الذي يتواصل أيام الإحرام يعلن أن الإنسان الذي يراقب أعماله هو الإنسان الأقرب إلى الله وهو الإنسان الأكمل توحيدا والأمثل حكمة لأنه استطاع بتلبية داعي ربه أن يكتشف ذاته وقدراته الكامنة وأن يعمل على أن يفعل هذه القدرات الكامنة بحيث يدعوه إلى أن يزيح عنها هذه الحجب لتبني الذات من جديد من دون مثبطات ومن دون عقد ولتصل إلى حالة من الطهر عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »⁽²⁵⁾.

ج - دلالة : اكتشاف الهوية الحقيقية للإنسان : رمزية الإحرام :

تكون بداية اكتشاف الهوية الحقيقية للإنسان عبر الإحرام ذلك أن الإحرام أدب خاص به يفرق الإنسان بين الهوية الحقيقية للذات وبين الأعراض الفرعية اللاحقة فالتجرد يعني أن تتزاح عن الهوية الحقيقية للإنسان كل الأقنعة وكل حجب الغفلة وأن تتحرر الذات من ضغط لواحق الرفاه وإن كانت مباحة في الأوقات العادية. إن التجرد من المخيط والمحيط يعني أن يتحرر الإنسان في مدة الحج من بهارج الزينة وبريق الظاهر وعبق التمتع وكثافة الحس بحيث تتخلى الذات عن التكبر الزائف وتطرد عن نفسها نشوة السكر بالأنسا. إن الإنسان المقهور بكثافة الحس وسطوة اللذة و'جنون' الشهوة إنما هو إنسان تتعطل فيه

(24) الفدية أصناف ثلاثة صدقة أو صيام أو نسك وتجب لمحظورات الإحرام وهي على التخيير نبح شاة أو إطعام ستة مساكين.

(25) إنها دعوة إلى طهر مخصوص يمكن بعده أن يصبح بناء الذات أمرا ميسورا.

قوة الإرادة وتذبل فيه فاعلية السيطرة على الذات وهذا مطبّ خطير يؤدي في الغالب إلى أن يغترب الإنسان عن مصدر القوة التي هي صميم كيانه بحيث تتلاشى القوة الإنسانية العظيمة التي بها يعي الإنسان مكانته وغاية وجوده والتي بها يكون التّسامي والتّواصل والتّعارف والعطاء والاجتماع. نعم إن قوة الرغبة متمكّنة من النّاس ولكن مراقبة الرغبات وتهذيبها وتوجيهها وفق ما يقتضيه السلوك المتزن إنّما هو سبيل إلى تنوير الزوايا المظلمة في الشخصية وسبيل إلى إزاحة العتمة عن الهوية الحقيقيّة للإنسان تلك الهوية التي تتمثل في مقام الإنسان المرید الذي لا يكون مغلولاً بسلاسل الشهوة ألا ترى أن الفقهاء اتفقوا على أن المحرّم إذا أتى فعل الجماع « قبل التحلل الأول فسد نسكه ووجب عليه المضيّ في فاسده والقضاء على الفور »⁽²⁶⁾. كل ذلك تغليظاً على من غلبته الشهوة وتأديباً له إذ من مقاصد الحج تهذيب الغرائز وضبط التصرفات إنها مهمة صعبة تقتضي ثورة عارمة على النّفس هذه النّفس التي لا تخلو من مكر وتلون وتحرك وتململ وغرور ودسائس ونزق وقلق وطيش وتكبر وضعف وانفلات هذه النفس التي طالبها القرآن أن تسدّ هذه المنافذ كلّها أيّام الحجّ عندما خاطبها قائلاً ﴿ الحجّ أشهرٌ معلومات فمن فرّض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ ﴾⁽²⁷⁾.

و بناء على ما ذكرناه، نقول إنّ أهم ما نستنتجه من رمزية الرّكن الأول هو أن التحرر من سطوة النفس ومن الرغبة الشرسة أعظم إحرام وإن الحكمة العملية التي تكفل هذا الانصياع السلوكي تعود إلى أساس مكين هو الإيمان الباطني ولكن عبر تفعيل مخصوص يسميه فقه الحج الإحرام ويقوم الأمر فيه على تفعيل العلاقة القائمة بين العقيدة والإرادة ففي الإحرام ظاهر وباطن: أما

(26) الشعراني عبد الوهاب : الميزان الكبرى، الجزء الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ/2004م، ص501.

(27) البقرة، 197.

ظاهره فلباس معين مخصوص - التجرد - . وأما باطنه فنية . أمّا اللباس المتواضع الذي دلّ على التجرد، فسيكون بمثابة درس حسيّ يشعر الحاج في غضونه بقيمة التواضع ويتمثل طهر الأصل الخيري الذي هو فطرة الإنسان، أمّا النية والتي محلها القلب فإنها تذكر الحاج بأن قيم الأخلاق والسلوك الظاهري للإنسان يقتضيان دافعا موجها ومؤثرا في الحسن والقبح والدافع هنا هو الأصل القلبيّ الإعتقادي الذي استطاع به الحاج أن يلتزم بسلوك معين نجح به في ترويض النفس فانسأقت ملتزمة مقاصد خيرة. فماذا يعني ذلك ؟ إن ذلك يعني أن الإحرام يذكرنا بحقيقة كبرى تقول هذه الحقيقة انه من مجال الباطن يكون الفكر أو الوجدان أو القول أو العمل أي أن الأصل القلبي الاعتقادي هو الذي تعود إليه أفعالنا فمنه نرد وعنه نصدر وإليه نعود ولمزيد تأصيل هذه الحقيقة الكبرى تزامن التجرد والنية مع النطق بالتلبية « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ». إن التلبية هي شهادة القول على ما ترسخ في القلب ولم يبق بعد الاعتقاد والنطق الا العمل بمقتضى تلك الشهادة بحيث يوجه الحاج جميع قدراته لتتأغم وتتوأم مع معاني التلبية أي أن يلبي بأفعاله ما يطلبه منه رب العالمين ولذلك كان المفصل الأول من صيغة التلبية - لبيك اللهم لبيك - هو المتقدم في الذكر وكانت التلبية بصفة عامة هي أكثر الأقوال تداولاً على الألسنة في أيام الحج. ولا يجب أن ننسى أن صيغة التلبية لا تقف عند المطالبة بالعمل والامتثال للأمر والنهي بل إنها تصل الإنسان أكثر من أي وقت مضى برب الوجود ذلك أن الإنسان إذا نطق بصيغة التلبية شعر أن ذاته ترتبط بالحقيقة العظمى الأزلية فالتلبية تختزل ما تقرر في الدين من الإجابة عن سؤال الوجود (إن الحمد والنعمة لك والملك). فالكون كله يعود إلى المنعم المالك الذي تجلّى برحمته فكان الوجود. والحاج عندما يلبي معترفا بنعمة الإيجاد (والملك) ونعمة الإمداد (والنعمة لك) ويحمد الله على ذلك (إن الحمد) فإنه يصل ذاته بالخالق أولاً ويعلم موقعه في الوجود ثانياً، حينها يخرج الإنسان من حال التمزق والجهل إلى حال الوحدة والعلم، يخرج من مقام

المدلول المعتاد - الدنيا - . ليطل على عالم أرحب يتواعم فيه النسبي مع المطلق ويلتحم فيه الزمن بالأبد والحقيقة بالوجود. إن هذه المقاصد تفعل التوحيد الذي ذكرّت به صيغة التلبية مرتين (لا شريك لك) بحيث لا يكون التوحيد عقيدة نظرية فحسب بل يكون التوحيد عقيدة موصولة بفعل الإنسان وبالوجود. وبناء على ما ذكرناه، نستطيع أن نقول إنّ ركن الإحرام بما فيه من تجرد ونية وتلبية وبما يحتويه من دلالات فانه يرفد الوعي البشري بفيض خصب من الحدس الروحاني الذي به يسهل اكتشاف الهوية الحقيقية للإنسان والذي به يقترب الذهن من استيعاب الأمور الكلية الشمولية وهو ما ينفي الاغتراب.

د- دلالة العالمية : جدل الكوني والخاصّ : وحدة الإنسانيّة في احترام التنوّع :

- شهود حقيقة الأخوة الإنسانية :

تقوم مقاصد الحج على عالم حدوده مفتوحة : تعددية ثقافية واثنية ،ومذهبية وفقهية بحيث تصبح مدينة مكة المدينة الأكثر تنوعا في العالم. تمازج فريد يبلغ حد الذروة ومع ذلك يبقى التوحيد مظلة البشرية وميثاق الأمم. كل المواثيق الفرعية تبقى خارج مجال الحج. بحيث ترفض " فلسفة" الحج كل التوجهات الأيديولوجية التي تفرق بين الناس، إن ميثاق التوحيد هو الذي يسود وهو الذي يسمح بأن يتجلى التنوع الإنساني، وتكون له شرعية حقيقية ماثلة أمام العين حسا ومعنى فشرعية التنوع هنا ليست وهما أو فعلا سياسا مناورا إنها حقيقة وجودية ثابتة ذلك أن لها شرعيتها فرمزية الجماعة وهويتها لاتخضعان في أيام الحج لمخيال الجماعة بالمفهوم السياسي حيث الايديولوجيا وضيق الحدود والتحزب واصطناع الإحسان والمناورة. إن كل الألسن هنا من حقها أن تقول لبيك الهم لبيك وكل الشعوب من حقها أن تكون وأن تصل تاريخها بتاريخ السادة الأنبياء عليهم السلام عروة وتقى تمتد عليها الأيدي يشد

بعضها بعضاً لتصافح آدم عليه السلام. وكل إنسان هنا في الحج من حقه ألا يُستلب وجوده وألا تغتال ذاكرته وألا يطمس تاريخه وألا يفرّق بينه وبين أخيه الإنسان. إن الميثاق الأكبر - التوحيد - هو الذي يحمي هذا التنوع ويحرّم الاعتداء عليه ويؤصل قرابة البشرية، إن الذي يتأكد في الحج هو أن التوحيد ينحاز إلى جمهور البشر وينادي كافة الخلق ويفتح الأبواب للجميع ويدفع كل الموانع والمثبطات والمعرقات ليصل إلى الشعوب وهذا هو المقصد من قوله تعالى ﴿هَذَا بَلَاغٌ إِلَى النَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ (28). وهو المقصد الذي بنيت عليه آية الحج ﴿وَأَنْ فِي النَّاسِ﴾، إن الحج في مقصده الأسمى هو نداء إلى الإنسان ليمثل حقيقة الأخوة الإنسانية وليشهد معنى وحدة الإنسانية وهذا هو مصداق التعارف (29) بحيث يقلص الحج من دواعي الريبة من الغير سواء أتعلقت الريبة بالعامل الجغرافي أو بالعامل الثقافي.

- من الجغرافي إلى الثقافي : وحدة الإنسانية في احترام التنوع :

إذا نظرنا إلى ضغط العامل الجغرافي استنتجنا أن الحج ينفي حجب الجغرافيا ويهذب من سطوة حنين التعلق بالإقليم إن حجب الجغرافيا أو عمق الفج بتسمية القرآن لن يزحما الإنسان ولن يمنعاه من أن يضرب في الأرض حيث يتجاوز الإنسان تقسيمات الحدود وتطاول المسافات بما يشبه فعل التحدي. وقد بين لنا القرآن أن هذا الشأن إمكان يقتدر عليه الناس فقال ﴿وَأَنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (30) إن هذا الاقتدار الذي يستطيع به الإنسان تجاوز ضغط الجغرافيا حيث رتبة المكان وقلق ضيق الحدود إنما هو اقتدار يعود إلى الطبع الثقافي في الإنسان هذا الطبع

(28) إبراهيم، 14.

(29) ذكرت آية الحجرات هذا الأمر المهم لما قالت ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ - الحجرات، 13.

(30) الحج، 27.

الذي به يستعد الإنسان دائماً لتجاوز المادي وتذليل الطبيعي. ويعد هذا الاقتدار من صميم المشروع الثقافي للإنسان ومن هنا يكون الحج مساعداً على إنتاج الثقافي، وبعبارة أخرى إن أذان الحج ونداءه لا يسمحان أن يبقى الإنسان رهين موطن الميلاد فرهين المحبس لا يتقدّم. فعلى الإنسان إذن وبحسب مقصد الحج أن يتشوّف إلى الهجرة وأن يستعد إلى السفر والانتقال. ذلك أن المهاجرين والمسافرين هم الذين يمثلون دائماً الجسم الأنشط داخل كل مجموعة بشرية. وتأسيساً لهذا المقصد وبناء على هذا المنزع الثقافي في الإنسان. كان تعدد الانتقال من مكان إلى آخر في أيام الحج ظاهرة ملحوظة إلى درجة أن أصبحت النّفرة من المكان وتجديد الحدث سنة من سنن الحج وقانون من قوانينه.

- الروحي لا يلغي الثقافي : من الثقافي إلى الكوني :

إذا نظرنا إلى العامل الثقافي فإننا نلاحظ أن شعائر الحج لا تنفي ولا تطمس الاختلاف الثقافي - لغات مختلفة، عادات وأعراف ورموز مختلفة، ألوان مختلفة، نساء رجال أطفال⁽³¹⁾، شباب شيوخ... زخم تاريخي يثير التفكير ويصل حركة الماضي الإنساني بالحاضر والمستقبل... هكذا يتلاشى المشهد الأحادي ويُعَدُّ مخيال الواحد فينبج مقام الغير ويتجلى المتنوع وينفتح للعقل أن ينظر في مشاهد وأن يتدبّر في متعدد وحينها تشرق لحظة التأويل بحيث يصير المعنى معاني والمنفعة منافع والوجود شهوداً حتى أن القرآن لما تحدث عن منافع الحج لم يقل ليحصلوا منافع لهم بل قال ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾⁽³²⁾ لأن لفظ الشهود أركى معنى فهو يجمع بين المادي المحسوس والمعنوي الخالص، والأصل المكين في الشهود هو ذلك الامتلاء المعرفي والحضور الروحي اللذين بهما تخصّب الهوية وبهما تقوى وبهما يقع الانتعاش

(31) انظر، كتاب جزاء الصيد باب حج الصبيان وباب حج النساء من صحيح البخاري.

(32) الحج، 28.

في علاقة الأنا بالوجود إنه انتعاش إدراكي خاص تمتاز فيه الهوية بالوجود وذلك حين يتفكر الحاج في التنوع الذي يموج به مشهد الحج الذي تحتضنه أم القرى. ويتجلى التنوع في ذلك المحيط البشري العظيم الذي تغذيه أنهار ذات ألوان ثقافية وأنوار حضارية يتأنس بعضها ببعض ويرشد بعضها بعضاً ويأمن بعضها بعضاً ويثوب بعضها إلى بعض ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأُمْنًا ﴾⁽³³⁾. والذي أراه أنّ مكة لن تكون لها تلك المعنوية التي عبّر عنها القرآن بلفظ القيام حين قال ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾⁽³⁴⁾ لن يكون لمكة هذا القيام ولن يتواصل تجلي تلك المعنوية إلا إذا بقيت مكة قادرة على استيعاب كل الثقافات في جمع يقوم على صعيد الحق التوحيدي فتكون المناسك بذلك قائمة على جدل الكوني والخاص بحيث لا يُطمس القيام الثقافي باسم القيام التوحيدي ولا يلغي القيام التوحيدي باسم القيام الثقافي إذ المشهد هنا مرتبط بعالمية الإسلام. وهي عالمية تقوم على معادلة تقول إن المشترك الروحي لا يلغى التعدد الثقافي.

3 - الإنسان والطبيعة : أصل المسؤولية : تحقيق الوئام مع الطبيعة :

عندما يستوعب الحاج دلالات ركن الإحرام حيث يفك العقل إشارة الرمز وحيث يخصّب الإدراك بمعاني التجرد وحيث يستشعر القلب نص التلبية وحيث يتصالح الإنسان مع هويته الأصل وحيث يعي الحاج مبدأ احترام الآخر من بني نوعه...حينها تدعوه المناسك إلى تعامل مخصوص مع الطبيعة، الأصل فيه أن يتصالح الإنسان معها على مقتضى ما يحقق الوئام بينهما، ولكي يتجلى هذا المقصد كمقصد مكين، لا يجوز التهاون به تأسيس فقه الحج على خلفية أن يكون

(33) البقرة، 125.

(34) المائدة، 97.

الوعي بقيمة الطبيعة من تجليات العبادة أي أن الإنسان المحرم سيتعبّد بفعل متعلق بالطبيعة، حيث يكون الوعي بقيمة الطبيعة وبكيفية التعامل معها وبآداب ذلك من صميم ما تطلبه العبادة، ومن مرتكزات الاستخلاف أيضا. ذلك أنه من مقتضى الإنسانية أن يتحقق الوعي بقيمة الطبيعة لا باعتبارها كائنا ثانويا بل باعتبارها ركنا من أركان الوجود وعنصرا ينتمي إلى شجرة الأكوان وهي الشجرة التي يبقى الإنسان أيضا عنصرا منها ولذلك فإن كل إخلال بكائنات الطبيعة وكل تدمير لقانون التوازن البيئي إنما ينعكس على الإنسان نفسه. فلن يتمكن الإنسان من العيش في صحة وسلام ورغد إلا في شروط طبيعية بكر. وعلى كل البشر أن يحققوا تواؤما مع الطبيعة بحيث تبقى مواردها نقية. وهذا المقصد هو الذي جعل فرض الحج ينادي المحرمين بأن يراقبوا تصرفاتهم تجاه الطبيعة فيمسكوا زمام نفوسهم ويكفوا أيديهم عن كل ما يخل باحترام ناموس الطبيعة فلا يؤذوا أي كائن منها وإن بدا حقيرا بسيطا ويتبين ذلك من خلال تحريم قتل الحشرات وتحريم قلع النباتات والمغروسات أو قطع أجزاء منها فضلا عن تحريم صيد البر أو قتل الحيوانات (35) إن هذا القانون يسري في أيام الإحرام بحيث لا يجد الحاج أي تبرير إذا فعل ما يخرج عن سمت هذا القانون والمقصد من ذلك تفتطين الإنسان إلى أن الأرض تحتاج إلى احترام مخصوص ورفق دائم بحيث يكون للطبيعة حق معلوم. إن استعراض الإنسان لعضلاته على الطبيعة من دون تفكر وخلق إنما هو مآل عاقبته كارثية وثمرته باهض (36). إن المعنى المقصود من هذه الشعائر أن يعرف الحاج أن تعامل الإنسان مع الطبيعة لا ينبغي أن يتأسس على منوال السلطة المطلقة حيث قانون السيد

(35) « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم...» المائدة 95.

(36) وهو ما يلاحظ في تاريخنا المعاصر : التلوث البيئي، الانحباس الحراري، تغيّر المناخ واضطرابه وآثار ذلك على الصحة والاقتصاد....

والعبد ولا ينبغي أيضا أن يتأسس على خلفية استهلاكية شرسة حيث تنهب الدوائر الفاعلة مقدرات الطبيعة بجشع عشوائي غايته السوق والربح والمجد.

إن ما ترومه شعائر الحج في مقامنا هذا هو أن يراعى قانون التوازن البيئي إذ من أهم مهام الوعي البشري المستتير الدفاع عن الوئام بين الإنسان والطبيعة لما في ذلك من المنافع والمصالح لأجيال البشر ولمزيد تثمين هذا الوعي نص فقه الحج على عقوبات تربوية تعيد المعنوية لهذا المقصد المهم كلما وقع الإخلال به عنوة أو سهوا (37).

يمكننا أن نستنتج من خلال ما تقدم أن فرض الحج يرغب في أن يبلغ الوئام مع الطبيعة مقام الشهود، وهذا الشهود ليس هو من جنس الشهود التأملي المحض بل هو شهود مخصوص ودلالة خصوصيته تعود إلى ملحظين : أولهما أنه شهود يرتبط فيه النظر بالعمل وثانيهما أن الأمر فيه موصول بالعبادة فالإنسان المحرم كما ذكرنا أنفا يتعبد بفعل يتصل بسلوكه مع الطبيعة وهو مجازي على هذا الفعل أو معاقبا وبالتالي يصبح الوئام مع الطبيعة صورة من صور العبادة، وتجل من تجلياتها. ثم إن بناء هذا الشهود على العبادة يضمن استمراريته بحيث يعود الحاج وقد ترسخ لديه أن أي اعتداء على الطبيعة سيعدّ خروجاً عن مقصد العبادة، وحقيقة الدين. وإذا كانت العبودية هي أصدق ما يدل على التوحيد جاز لنا أن نستنتج أن ميثاق التوحيد يقتضي حباً للطبيعة واحترام كائناتها وإن الحالة الروحية التي ينتجها التوحيد، هي التي تؤسس وعياً كونياً يمنع الإنسان من كل تصرف يهيمش دور الكائنات ذلك أن الاستخلاف سيكون في الطبيعة وبواسطة الطبيعة.

لن يستقيم الاستخلاف ولن تؤتى ثماره إذا لم تتواءم مراتب الوجود بحيث تبدو شجرة الأكوام واحدة بعناصر مختلفة ومتفاعلة ومتكاملة: الجماد -

(37) الفدية بأنواعها.

الحيوان - الإنسان. فإذا استغل الإنسان مزاياه الخاصة ليعتدي على هذا التواؤم تعطلت حقيقة الاستخلاف وانخرم العمران وهدد الخراب واقع الأرض. إن ما ينبغي أن يتأصل في وعي الحاج، هو حب الخير للكائنات كلها فحق الحياة بالنسبة لهذه الكائنات يمنحه الله وله وحده حق التصرف في هذه الهبة وعندما يدّعي الإنسان امتلاك هذا الحق فإنه يرتكب بذلك أعظم الحماقات-فهو بهذا الإدعاء - ضدّ الله وضد الكائنات وضدّ الإنسان.

4 - الإنسان والمكان : الحج والجدل الموصول بين الإنسان والمكان.

يبدأ الإحرام بالحج انطلاقاً من مكان معيّن، فلا يكون الإحرام ولا ينعقد على الصفة الشرعية المطلوبة. إلا إذا ارتبط عن إرادة وقصد بالمكان المخصوص والدليل على ذلك أن في تعدد المواقيت المكانية⁽³⁸⁾ إشارة لطيفة تنبئ بمعموم اعتبار المكان عند الإحرام. ذلك أن تعدد المواقيت المكانية ينفي تفضيل مكان على مكان. لقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن نقطة الارتكاز هي موقع مكة وبالتحديد البيت الحرام ذلك هو المكان الأم. أما التوجه إلى هذا المكان فسيكون بحسب موقع الانطلاق - انطلاق الحاج - شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً «فزو الخليفة لأهل المدينة ومن وراءها تدعى اليوم آبار علي. والجحفة لأهل الشام ومصر وأهل المغرب ومن وراءهم من أهل الأندلس وأوروبا ويلملم لأهل اليمن والهند. وقرن المنازل لأهل نجد اليمن ونجد الحجاز وذات عرق لأهل العراق وفارس وخرسان والمشرق ومن وراءهم»⁽³⁹⁾. ولم يغفل فقه الحج الاهتمام بمسألة الميقات المكاني عند مساماته بحراً وجواً. إنّ

(38) الميقات المكاني : اصطلاح يقصد به أن يكون لكل متجه إلى مكة موقعه الذي يحرم منه بحيث لا يجوز له أن يتعدى ذلك الموقع من دون إحرام.

(39) الورطاسي، قنور : فقه المناسك على مذهب لإمام مالك، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401هـ/1980م، ص 42.

هذا الحرص على تعيين هذه المواقيت المكانية والتي تكون لأهلها « ولمن مرّ عليها من غير أهلها كما صرّحت به الأحاديث الصحيحة »⁽⁴⁰⁾. يدل على تنبيه الحاج إلى الاعتداد بالمكان، وإلى تفتين الوعي بقيمة هذه الحيثية. إن الوقوف عند المكان المحدود لتحديد بداية العمل ولاستحضار النية وتأكيد العزم ينطوي على مضمون رسالة تصرّح بقيمة المكان. فالمكان ليس تجريدا قائما في الذهن فحسب، وليس المكان هامشا عرضيا ولا معطى ثانويا بل إنه عنصر مهم في شجرة الأكوان إنه عنصر مشارك في تحقيق فعلنا وفي صحة انعقاد كثير من عبادتنا وأعمالنا. وبناء على ما ذكرناه يصبح للمكان حضور خاص بحيث ترى أيها الإنسان في المكان أثرك وأثر الله. إن توقيرك للمكان وفعلك فيه يقوّيان فيك شهود الوجود أي أن شهود الوجود يكون بامتزاج المكان والفعل أو قلّ بالتحام الفعل بالمكان. أنا في المكان أفعل إذا أنا موجود. فالوعي بقيمة المكان كفضاء أو كمحضر للفعل يمنع الاغتراب المكاني ويبدد وحشة الفضاء فإذا ملئ المكان بفعل الإنسان كان الإنسان وتأنس المكان، هكذا تبدو صورة العلاقة بين الإنسان والمكان من خلال مناسك الحج، يُفعل المكانُ الاقتدار البشري ويمنع الكسل والتسويق. إن هذا المقصد الذي يتجلى حسّا ومعنى منذ بداية الحج لن ينقطع التذكير به إلى نهاية الحج إذ لكل منسك مكانه : الطواف في مكان والنحر في مكان...حتى لكأنّ الحاج يتعلم بالتجربة المحسوسة أنّ الطبيعة التي خلقها الله «تلتزم حقا بالقاعدة : مكان لكلّ شيء وكلّ شيء في مكانه»⁽⁴¹⁾ إن تجدد التذكير بحيثية المكان يؤصل لدى الحاج استشعار حرمة المكان ولذا كان من المعلوم في فقه الحج أن من تجاوز الميقات المكاني بغير

(40) الشعراني، عبد الوهاب: م ن، ص 490.

(41) بول ديفز : الله والعقل والكون ترجمة سعد الدين خرفان، وائل بشير الأناسي، دار علاء الدين سورية، دمشق، ط4، 2005، ص 225.

إحرام لطارئ لزمه الهدي⁽⁴²⁾ وهو ما يؤكد الحرص على عدم انقطاع الجدل الموصول بين الإنسان والمكان حتى أنه إذا انعدم الحس بالمكان لنسيان طارئ أو تعمد مقصود وجب التنبيه إلى قصور ذلك العمل وتدارك الأمر بتكميل مخصوص ذي بعد تربوي يتمثل في الهدي. مع التأكيد على التحري وعدم العودة إلى ذلك الصنيع.

إنّ التصور الذي ترغب فلسفة الحج في تأصيله هو احترام المكان واعتباره ركنا من أركان الوجود مع التأكيد على أن بين المكان والإنسان جدلا موصولا وخلقا، ولذلك فإن تهميش المكان وعدم الوعي بقيمته فضلا عن تخريبه إنما هي سلوكات تتعارض مع مقصد الإحرام وغاية العبادة.

4 - الإنسان والزّمان : الحج وجدل الفعل والزّمن

من صور الكمال ضبط الوقت، وحسن التصرف فيه، لأن في ذلك تعليما للإنسان لأن يفقه أنّ الزمان ركن من أركان الوجود وحيثية مساعدة على تحقق الاستخلاف ونجاحه. وهذه غاية شريفة تسهل على الإنسان أن يتقدم في فهم الوجود بحيث يتضح لديه عن بصيرة جدل الفعل والزّمن. وهو ما يؤهله لكي يتفطن إلى كون الزمن هو الشاهد على الفعل. وتبقى إرادة الإنسان وحدها هي الحاكم على هذا الجدل فيما أن تملأ صيرورة الزمان وتشهد بفعل الإنسان وإما أن " يهرب الزمان " وتمر صيرورته خواء وفراغا يشبهان العدم. ولذلك بني فقه الحج على مقصد يجعل مدار الوعي بالزمن متعلقا بإرادة الإنسان وإنه لمن أدقّ أسرار فقه الحج أن يستوعب المكلّف هذا المقصد، فعلى الحاج ومنذ إحرامه أن يُحيّن كل أفعاله ومناسكه. ذلك أن الأفعال المتعلقة بركن الحج لن تكون شيئا مذكورا عند الله إلا إذا تنزلت في الزمان المخصوص المحدد لها

(42) الشعراني، عبد الوهاب : م ن، ص 491.

وتجلت فيه فمن المعلوم أن احترام المواقيت الزمانية هو من قوام ما تكون به المناسك ناجحة ومفعمة بالمعنوية بحيث لا تحتاج إلى فدية ﴿من صدقة أو صيام أو نُسك﴾⁽⁴³⁾ ولكي يذوق الحاج طعم هذا المقصد الأسمى مقصد الوعي بقيمة الزمن.

وزع الله مناسك الحج على أزمنة معينة يجمعها وقت معلوم وهو الوقت الذي أخبر الله عنه بقوله ﴿الحج أشهر معلومات﴾⁽⁴⁴⁾ وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة . والحقيقة أن هذا الوقت المعلوم الذي ذكره القرآن له شرعيته التاريخية إذ يعود إلى صميم ثقافة التوحيد حيث عرفت طبقات الموحدين أو أن هذه الشهور منذ أن أذن إبراهيم عليه السلام في الناس بالحج ولقد توارثت أجيال العرب ذلك وحفظته عن النبي إبراهيم وحذقته لوجود الكعبة في بلادهم⁽⁴⁵⁾ حتى أنهم - العرب - لما أرادوا أن يخضعوا أشهر الحج للنسيء⁽⁴⁶⁾ كان ذلك منهم خروجاً عن مجال التوحيد وميلاً إلى مجال الشرك. لقد ارتبطت مناسك الحج بالأزمان المخصوصة المعينة لتدل على وجوب اقتران الفعل بالزمان. فالموقع الطبيعي للفعل البشري أن يكون في هذه الحياة وفي صيرورة هذا الزمان بحيث لن يكون الزمان منفصلاً عن الإنسان. ولتمثل المسألة حساً راهنت مناسك الحج على أن تكون العبرة مستقاة من خلال درس ملموس /حسي حركي فكل أعمال الحج ستكون بدايتها ونهايتها متعلقة بزمان مخصوص إلى درجة أن يصبح الزمن شرطاً في صحة انعقاد تلك الأعمال. فكل أعمال الحج تذكر بأن عدم مراعاة الزمن هو خطأ يجب تداركه⁽⁴⁷⁾، وما

(43) البقرة ، 196.

(44) البقرة، 197.

(45) ابن عاشور الطاهر: م ن، م2، ص 231،

(46) النسيء يعني أنهم يزيدون في مدة الشهور أو ينقصون منها بحسب مقتضى أغراضهم وقد أنكر القرآن عليهم ذلك واعتبره يعارض الوعي بالزمن.

(47) إذا تأخر المنسك عن وقته استوجب هدياً.

على الحاج إلا أن يقدّر الزمن بحرارة قصوى. ولمزيد ترسيخ هذا الوعي يأتي الوقوف بعرفة عند اقتراب نهاية الحج ليؤكد من جديد - وعبر رمزية مفعمة بالإشارة أن مسألة الوعي بقيمة الزمن هي المؤشر على نجاح سعي الإنسان في الدنيا وهي المؤشر على مدى قربيه من الله وانصياعه لأوامره فركن الوقوف بعرفة يكثف الوعي بالزمان حسا ومعنى :

فمن ناحية الحس كان الوقوف بعرفة مرتبها بزمان معين ومحدود ومن فاته ذلك المقدار من الزمان فلم يكن حاضرا فيه بعرفة فاته كل الحج وتعطل إحرامه مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة »⁽⁴⁸⁾. فزمن عرفة مقدر حسا بحيث لا يكتفه إيهام ولا يقبل تقدما ولا تأخيرا، ولا يسمح بأي تدارك أو تأجيل،⁽⁴⁹⁾ ويرفض منطق التسويف واللامبالاة حتى لكان الوقوف بعرفة هو زمن الوعي بالزمن أو قل هو المعنى الأعمق للزمان. ومن لطائف هذا الركن ودقيق الإشارة فيه أن الوقوف يجمع بين الليل والنهار. حيث ينبغي على الإنسان المحرم « ألا يفصل عن طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار ».⁽⁵⁰⁾ والغالب على الظن أن في الجمع بين الليل والنهار إشارة تذكر بأنهما معا أداة الإنسان ليفعل وليتحقق سعيه، فلا مناص من اعتبار قيمة الوجدتين الليل والنهار فهما بحسب الروح القرآنية خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا⁽⁵¹⁾، ولتأصيل هذا الشأن كان الحلول بمزدلفة

(48) رواه أحمد وأصحاب السنن : عن عبد الرحمن بن يعمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر مناديا ينادي « الحج عرفة ».

(49) يقول ابن رشد « أما حكم الوقوف بعرفة فإنهم أجمعوا على أنه ركن من أركان الحج وأن من فاته فعليه حج قابل والهدي في قول أكثرهم لقوله عليه الصلاة والسلام « الحج عرفة ». « ابن رشد : م ن ، ص 280.

(50) الغزالي، أبو حامد : م ن ، ص 92.

(51) هذا ما ذكرته آية سورة الفرقان لما قالت « هو الذي جعل الليل والنهار خلقه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ».

ليلا ومفارقتها نهارا. وكان المبيت بمنى والمكث بها نهارا أيام التشريق من واجبات الحج عند المالكية. كل ذلك ليتأكد من طريق الحس والاعتبار أنه لا فصل بين الوجدتين الليل والنهار إلا بحسب ما يقتضيه رفع الحرج والشدة عن الإنسان⁽⁵²⁾. إذ المعتبر انطلاقا من النصوص التأسيسية وجوب استثمارهما.

أما من ناحية المعنى فيغلب على الظن أن المتبادر إلى الذهن ملحظان :

- أولهما : أن حظ الحاج من المعرفة أن يفقه بأن إلحاح ركن الحج على المواقيت الزمانية يخصّب الوعي بالزمان الموضوعي، زمان الدنيا أي أن تنشأ رابطة بين أحوالنا الباطنة والزمان. فلا وجود لعمل لازماني ولا نجاح لسعي خارج الزمان ومن أغفل هذه الحقيقة ضيع المطلوب وعطل ركنا من أركان الوجود.

- وثانيهما : أن الوعي بالزمان لا يقف بالإنسان عند مجال الدنيا بل يفتح نافذة على ما هو أعظم من الزمان أنه انفتاح على المطلق والأبد واللانهائية. إنّ نجاح السعي في الزمن الموضوعي لن يضيع سدى ولن تحصره جدران الدنيا. ولن يترد إلى ذكرى تخفت يوما بعد يوم إلى أن يقتلها كرمّ الدهر. بل إن سعي الزمن الموضوعي سيَقُومُ بحيث يقابله بعد الانتقال والموت جزاء هو تكريم بنعيم لا ينفد ذلك أن حدث التاريخ المرتهن بزمن الدنيا سيكون بلاغا إلى الآخرة⁽⁵³⁾. بل لعلهما يتصلان اتصالا ينبئ بأن الزمن والأبد يلتحمان بل ويعترفان بفعل الإنسان والشهادة له. وقد ورد في صحيح البخاري ما يشهد لهذه الحقيقة حيث جاء في كتاب جزاء الصيد باب سنة المحرم إذا مات : « أن رجلا كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقصته ناقته وهو محرم فمات

(52) راحة الإنسان بالليل تقتضيها الضرورة لتجديد النشاط وإلا فإن المعتبر في القرآن أن ناشئة الليل هي أشد وطنا وأقوم قبلا.

(53) ونقصد بذلك أن الزمن يفضي إلى الأبد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تمسوه بطيب ولا تخمّروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»⁽⁵⁴⁾ هكذا يتحدّ الزّمان بالأبد، والواقع بالغيب، والدنيا بالآخرة، تلبية في الدنيا تظل موصولة تخبئها ذاكرة الوجود ليتجدد الهتاف بها من جديد عند البعث إنه الزمان الذي يعانق الأبد.

إن هذه النصوص تجعل من زمن المناسك أداة لرفع الحجب عن بصيرة الإنسان ليصبح فعلاً له « عينان واحدة ترى مايسير مسرعا إلى الزوال والأخرى ترى ما هو خالد مقدس »⁽⁵⁵⁾ ولقد ذكر القرآن بهذه الحقيقة مباشرة بعد أن أنهى حديثه المتعلق بفقّه الحج فقال ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق * * ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾⁽⁵⁶⁾ فبعد الوقوف السريع بعرفة هناك وقوف آخر عند الله يوم الحشر وهناك عرض لسعي الدنيا وتقويم لما اكتسبه الإنسان في هذا الزمان ﴿وأنّ سعيه سوف يرى﴾⁽⁵⁷⁾.

هكذا يفتح الزمان على الأبد ويتوحد الغيب والإنسان في الزمان ويتجلى التوحيد فعلاً ولا يغترب الإيمان. وهكذا يتحدّ مقام الكدح بمقام القرب أي أنه كلما وسعنا الزمان كنا في مقام الكدح وكلما ضاق بنا الزمان ولم يسعنا كنا في مقام القرب حتى إن الإنسان يصبح في وقت لا يسعُه فيه إلا ربه وخالقه. فالمقام الأول يفضي إلى المقام الثاني والثاني يفضي إلى الأول إذ بينهما هذا الجدل الذي * يؤمّن * أن يكون زمن الدنيا قاعدة للعروج وتمثّل لعوالم الغيب

(54) صحيح البخاري كتاب جزاء الصيد، باب سنة المحرم، حديث رقم 1851، ص 336.

(55) بول ديفر : م ن، ص 190.

(56) البقرة، 200-202.

(57) النجم، 40.

إنه جدل العروج والرجعة⁽⁵⁸⁾ الذي صاغته مناسك الحج من خلال الاستقرار والنفرة، والمبيت والحل، وتكرار أشواط الطواف، وتكرار أشواط السعي، وتجدد رمي الجمرات، والتقديم للصلاة والتأخير لها. والتكبير والدعاء، والصدقة والفدية، والقنود والوداع... إنه جدل يزخر بالمعنوية إنها معنوية ترفض أن تكون مجرد فكرة أو محض نظر، إنها معنوية تؤدي دائما إلى أن تتحول أفعالنا في الزمان إلى « قوى عالمية حية »⁽⁵⁹⁾ ودليلنا على ذلك أن آيات الحج نبهت حتى على المغالطات التي تتلبس بالإنسان، فتغتنل منه الفعل بل واعتبرت آيات الحج أن كل التبريرات الداعية إلى التواكل إنما هي مجرد وهم ومحض دسياسة نفس. فالمناسك لا تعترف إلا بالفعل وزمن الفعل ولذلك نقتد آيات الحج بشدة وهم القداسة واعتبرته معرفة كاذبة وكان لهذا التوجه النقدي سبب نزوله : « فقد كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوهم الناس »⁽⁶⁰⁾ فناقضوا بذلك مقصد تحمّل المسؤولية فنزل قوله تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾⁽⁶¹⁾ كل ذلك ليرفع عن بصائرهم حُجُبَ الغفلة عن حقيقة أن مقصد المسؤولية لا قيمة له ولن يكون ضمن القوى العالمية الحية إذا لم يثمر العزة والاقتدار والفعل، « واليد العليا خير من اليد السفلى ». بقي النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على هذا المقصد حيث ذكر به في حجة الوداع لما نبّه الحجاج إلى حسن استثمار لحوم الأضاحي والهدي، بحيث تكون بُلْغَةً وزادا مفيدا فقال « كلوا وتزودوا »⁽⁶²⁾

(58) النيفر حميدة : الإنسان والزمان عند محمد إقبال، محاضرة مرقونة، ص 6-7.

(59) النيفر حميدة : م ن، ن ص.

(60) البخاري : الصحيح، كتاب الحج، باب قول الله تعالى، « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » ص 282.

(61) البقرة، 197.

(62) البخاري : الصحيح، كتاب الحج، باب ما يأكل من البُئِن وما يتصدق، حديث رقم 1719، ص 314.

كل ذلك دفعا بالحضارة إلى سبيل الخير ودفعاً بالإنسان إلى الانعتاق من شدة الحاجة .

5 - نهاية المناسك : وسؤال الإحرام ؟

هكذا يتواصل جدل الفعل والزمن ليبلغ أشده عندما تبشر المناسك بميلاد الإنسان الجديد الذي يرتقي إلى كمال مخصوص وقابل للوجود ويحصل هذا الكمال عبر وصل بين العناصر الثلاث الآتية (1) الزمن (2) الذات الفردية (3) المجتمع والمستقبل البشري.

- أما بالنسبة إلى الزمن، فزيادة عما ذكرناه نقول إن مناسك الحج تبتغي تفعيل معنى الزمن. فالحج كله هجرة خاصة إلى زمان الفعل بحيث تكون مجموعة أيام الحج بمثابة ترشيد معرفي نظري وعملي مؤشره الحقيقي يقول أن من فاتته الوقوف بعرفة فاتته الحج. أي أن دورة الزمان لا تتقرب أحدا إنها بالاصطلاح القرآني العاجلة. إنها دورة بقدر ما هي خصبة بقدر ما هي محايدة إنها خصبة لأنها تعطي الفرصة للفعل وهي محايدة لان الإنجاز فيها يبقى بيد الإنسان.

- أما بالنسبة للذات الفردية للإنسان فإن مناسك الحج تبتغي أن يتحرر الإنسان من مثبطات الماضي فالحج القاهرة والأخطاء المكتسبة والذنوب المقترفة تزيحها المناسك وتلغيها فلا يكون الماضي ذكرى بائسة " تعيسة " أو عائقا يدمر الذات ويعوق تحررها قال صلى الله عليه وسلم « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »⁽⁶³⁾. ومعنى ذلك أن المناسك تعيد الإنسان إلى لحظة طهر تماثل طهر الميلاد، حيث انبثق الوجود الإنساني طاهرا وقابلا للطهر ولا تخفى هنا دلالة فعل رجع حيث يبين عن كون المناسك لا

(63) البخاري : ن ص، باب فضل الحج المبرور، حديث رقم 1521، ص 282.

تجدد الوعي بالزمن والوجود فقط، بل وتعيدهما أيضا إلى دورة الطهر التي هي الأصل والفطرة. حالة من الطهر يستقبلها الزمن القادم فهل ينجح الإنسان المحرم في المحافظة على هذه الحالة لتكون مقاما ؟ هذا هو السؤال الذي تبوح به نهاية المناسك : من أنا قبل الإحرام ومن أنا بعد الإحرام هذا هو السؤال : سؤال الحج ؟ وتبقى المسؤولية دائما منوطة بالإنسان. المهم أنه بنهاية المناسك تكون نفس الحاج قد حصلت طهرا معتبرا اذا حافظ عليه الحاج استطاع أن يعيش أحداث المستقبل باقتدار أخلاقي هائل وهو ما يجعل الحج قوة دفع توجه الإنسان نحو الخيرية ولعل هذا الملحظ هو الذي جعل بعض الفقهاء يستحبون إعادة الحج كل خمس سنوات على سبيل النافلة لمن استطاع ويستحبون أيضا تجديد العمرة كل سنة والمقصد من ذلك أن يُغذى الحس الأخلاقي بمدد متواصل ومتجدد غايته تأصيل التوجه الخيري لدى الإنسان.

- أما بالنسبة إلى المجتمع والمستقبل البشري : فإن النصوص التأسيسية المتعلقة بالمناسك تروم أن يكون زمن الحضارة موصولا بثقافة الحج ونعني بذلك أن تتأصل ثقافة الحج في المجتمع البشري. فأين يظهر ذلك من خلال القرآن والسنة ؟

أ - من القرآن :

من الآيات القرآنية الدالة على هذا المقصد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مَن خَلَقَ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (64) تذكر هذه الآيات بما يتصل بما بعد نهاية

الحج * إذا قضيتم مناسككم* والمعنى المتعلق بهذه الآيات يوجب أن تتواصل معنوية الحج سارية في المستقبل بحيث لا ينقطع مددها. إن التتوير الذي تم للقلب في أيام المناسك هو الذي سيميط الأذى عن طريق السلوك مستقبلاً (65) ولا يتأتى هذا المقصد ولا يكون إلا إذا صدر فعل الإنسان على مقتضى ما تأسست عليه مناسك الحج حيث رأيناها متعلقة بمقام القرب موصولة بدوام المراقبة رغبة في « أن تزول النقوش الباطلة عن لوح الروح» (66) وبناء على هذه الملاحظة أوصت هذه الآيات الحجاج ألا ينقطعوا بعد رجوعهم عن المعين الذي بنيت عليه المناسك، وهو الأصل الاعتقادي الباطني الذي ينبغي أن يقود سلوكنا فمنه نرد وعنه نصدر وإليه نعود إن ذكر الله -«لبيك اللهم لبيك»-، ينبغي أن يبقى فاعلاً على امتداد بقية حياتنا.

ب - من السنة :

تعلقت السنة النبوية الشريفة بما ذكره القرآن أيما تعلق حيث ذكرت خطبة الوداع خاصة أن الزّمن الثقافي الذي ينبغي أن يتواصل ويتجلى ويسري في العمران البشري إنما هو موصول بثقافة الحج. حتى أنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على أن يبلغ الشاهد الغائب (67). لكي يتصل السند الذي يحمي هذا التوجه وينشره في العالم. قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: «أيّها النّاس (68) إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد» (69).

(65) قارن الرازي، فخر الدين : التفسير الكبير، م 3، دار إحياء التراث العربي، دت، ص 184.

(66) انظر ما قاله فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآيات، م 3، ن ص.

(67) «فليبلغ الشاهد الغائب» البخاري، م 3، ن، كتاب الحج باب الخطبة أيام منى حديث رقم 1741، ص 317.

(68) انظر كيف بقي مصطلح النّاس حاضراً في الخطاب المنعك بالحج.

(69) صحيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم 154، وانظر البخاري، م 3، ن ص.

يتبين من خلال هذا المقطع من الخطبة أن ركن الحج هو الأصل الذي ستبنى عليه تربية إنسانية تمنع الاعتداء على الإنسان في نفسه وماله وعرضه أي أنها تربية تقوم على احترام الحقوق العظمى للإنسان، حق الحياة وحق الملكية وحق حماية الذات المعنوية. نعم لقد مهدت مناسك الحج لهذه التربية وأعطتها زخما معنويا بلغ حد القداسة. فإذا كان لشهر الحج وللبلد الحرام وليوم عرفة قدسية خاصة يعلمها الجميع وينضبطون أشد الانضباط لها ويوقرونها في قلوبهم. فإن هذه القدسية ينبغي بل يجب أن تتسحب وبنفس الفعالية على الحقوق الثلاثة التي ذكرناها، والتي سمينها بالحقوق العظمى. فلا ينبغي أن ينظر الحاج إلى هذه الحقوق باعتبارها واجبا دستوريا فقط بل عليه أن ينظر إليها باعتبارها حقوقا مقدسة لا تقبل النقض. لأنها هي وحدها التي تؤسس الركن المكين لصميم الوجود الذاتي للفرد فلا كرامة ولا قيمة للإنسان من دون هذه الحقوق. وإنّ تحقيق الوعي بهذه الحقوق يمر عبر وازع داخلي موصول بالإيمان، وازع داخلي يحقق للإنسان مراقبة مستديمة تربط بين هذه الحقوق وبين مقتضى الإيمان إنه وعي ذو حدس روحي يشبه فعل الصلاة أو فعل الصيام بالنسبة للمؤمن بحيث لا سبيل إلى اختراقه بما يناقض احترام هذه الحقوق أي أنك أيها الحاج إذا لم تحترم هذه الحقوق فإنك تناقض مقاصد الدين وترتد إلى وحشية لا تجيزها ثقافة الحج. نعم إن الوعي المقدس بحقوق الإنسان هو آخر ما نبه إليه الحج وأعظم ما نبه إليه. ولن تكون هذه الحقوق مشروعا دستوريا مسطورا وجافا، وليست هي بضاعة سياسية تلونها موازين القوى، وتهيمن عليها مصالح الأقوياء. إنما هي مشروع اجتماعي مدني لا يقبل التأويلات ويلازم الأدمي في الزمان والمكان، حتى يتميز الإنسان عن الحيوانات التي يأكل بعضها بعضا بقلوب باردة وبشراة غريزية لا روح فيها ولا عقل.

إنه وعي يبلغ حد العبادة ولذلك ماثل الرسول صلى الله عليه وسلم بين تلك الحقوق وبين قداسة شعيرة الحج حين قال «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» (70).

إن استعمال حرف - الكاف - هنا له دلالاته، وأقصد بذلك أن " الكاف " هنا لم تستعمل للتشبيه بل استعملت للمثلية. فكما أنكم توقرون يوم عرفة وكما أنكم توقرون شهر الحج، وكما أنكم توقرون حرمة البلد الحرام، فيجب أن توقروا هذه الحقوق مثلاً بمثل بحيث لا يحدث اغتراب بين مقتضي الإيمان وبين احترام هذه الحقوق.

وفي الختام، نذكرُ بأنه إذا كانت أعجوبة الحج تكمن في تكوين ذلك الاقتدار الذي يمنع السلوكات الرديئة والعنيفة من أن تحدث، فإنه ينبغي وبحسب مقاصد الحج أن يتواصل ذلك الاقتدار وذلك الصدق. وبحسب تلك المعنوية التي عمت زمن الحج وغطت أرجاء الأماكن المقدسة. فكلّ الأيام القادمة هي عرفة، وكلّ الشهور القادمة هي شهور الحج وكل الأماكن والأوطان هي الحرم المكي. أي أن معنوية الحج يجب أن تتواصل في الزّمان والمكان إلى يوم البعث هكذا أراد محمد صلى الله عليه وسلم فيوم عرفة هو أنموذج لما ينبغي أن يكون من أيامنا، وشهر الحج هو أنموذج لما يجب أن يكون من شأن في شهورنا، والبلد الحرام هو أنموذج لما ينبغي أن يكون في بلداننا فهل من مُدَكِّر؟

(70) البخاري : م ن، ن ص.